محمد محفوظ

الطريق إلى الوسطية

على المستوى الفعلي و الواقعي كل الآحاد و المجموعات , تدعي أنها وسطية و معتدلة , و إن غيرها هو المغالي و المتطرف . و كل هذه الأطراف تحاول تظهير بعض مقولاتها التي تثبت من وجهة نظرها أنها وسطية و معتدلة . و لو أخذنا جميع هذه المقولات على محمل الصدق و الجدية , لا يوجد طرف في العالم

الإسلامي متطرفا أو مغاليا أو خارجا عن جادة الاعتدال و الوسطية .

و هذا الادعاء المتبادل هو الذي يقودنا للوقوف قليلا لتحرير مقولة الوسطية من جميع هذه الادعاءات , والعمل على بيان المعايير الحقيقية و الجوهرية التي تجعل هذا الطرف أو ذاك وسطيا أو متطرفا .

و الوسطية التي نقصدها في هذا السياق , ليست الفضيلة بين رذيلتين أو اللون الرمادي الذي لا يحدد موقعه و موقفه من جراء تحولات و تطورات واقعه , وإنما هو ذلك الانسان الفرد أو المجموع الذي لا يمارس الغلو و التعصب النظري و العملي . و حتى تتضح هذه الرؤية بشكل تفصيلي فإن معايير الوسطية هي النقاط التالية :

1ـ احترام الانسان وجودا ورأيا وحقوقا :

فالله سبحانه و تعالى خلقنا مختلفين و متنوعين , و كل محاولة بشرية لقسر الناس على رأي واحد أو قناعة واحدة , هو سلوك متطرف , حتى لو أدعى هذا الانسان إنه وسطيا . و الوسطية في جوهرها هي احترام حقيقي و عميق للإنسان مطلق الانسان في وجوده و آراءه و قناعاته و أفكاره و التزاماته و حقوقه المادية و المعنوية .

وكل تعد على هذا الانسان في أي دائرة من الدوائر المذكورة أعلاه , هي ممارسة عدوانية , تطرفية , تخرج ممارسها من ربقة الاعتدال و الوسطية .

وهذا لا يعني تذويب عناصر التباين و الاختلاف بين الناس , و إنما يعني ضبط نزعات الفرد لكي لا يتحول هذا الاختلاف لمبرر للتعدي على الانسان المختلف . فلا يصح أن يعلن بعض الناس صبح مساء أنهم وسطيون , ولكنهم على مستوى قناعاتهم و أفكارهم و مقولاتهم هم يمارسون النبذ و الإقصاء و التعدي المعنوي على حقوق المختلف . فثمة مسافة قيمية و أخـــــــــــلاقية ينبغي أن تبقى قائمة بين حق الاختلاف المكفول للجميع , وبين انتهاك حرمة المختلف ماديا و معنويا . وكل إنسان أو مجموعة بصرف النظر عن مذهبها و دينها و أيدلوجيتها تجعل من حق الاختلاف قاعدة لتبرير انتهاك حق المختلف , هي مجموعة متطرفة و ليست ملتزمة بضوابط و مقتضيات الوسطية . فالوسطية لا تساوي أن يتحدث الانسان كثيرا عن فضائل الوسطية و الاعتدال , ولا تساوي أن يدعي هذا الإدعاء في مقولاته و خطبه , و إن المعيار الحقيقي للوسطية هو مدى احترام هذا الانسان أو تلك المجموعة للإنسان كل الانسان في وجوده و أفكاره و حقوقه المادية و المعنوية . وعليه كل النزعات النبذية و

الإقصائية و القدحية للآخرين , هي مستوى من مستويات التطرف و الغلو .

من هنا فإن كل من يريد أن يقبض على قيمة الوسطية , فعليه أن ينقي ثقافته من كل عناصر الكره و البغض للآخر المختلف , و يتعامل مع الموافق له و المخالف له على حد سواء فيما يتعلق بحقوقه و عناصر الاحترام المختلفة .

فالله سبحانه و تعالى جعل من قتل النفس الواحدة قتلا لجميع الناس . لذلك ثمة إصرار قيمي – إسلامي على ضرورة احترام الانسان بصرف النظر عن أصوله و أفكاره . إذ يقول تبارك و تعالى (من أجل ذلك كتبنا على نبي إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا و من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا و لقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون)(المائدة , 32) . .

فالأفراد و الجماعات الذين يحولون الاختلاف الديني أو المذهبي أو القومي , إلى مبرر للإهانة أو للقتل أو الاغتيال المعنوي , هم جماعات متطرفة و بعيدة كل البعد عن الاعتدال والوسطية .

لأن معيار الوسطية هو احترام و صيانة الانسان بصرف النظر عن دينه و مذهبه و قوميته في وجوده و قناعاته و حقوقه .

2ـ تبني خيار اللاعنف , والابتعاد على المستويات الثقافية و الاجتماعية عن كل أشكال ممارسة القوة ضد المختلف . فحقيقة الوسطية مضادة في وجودها و آفاقها عن حقيقة العنف و ممارسة القسر و القهر ضد المختلف .

وكل جماعة بشرية تتبنى خيار العنف و تبرر أو تشجع على قتل المختلف , هي جماعة غير وسطية . و بمقدار ما تبتعد الجماعات عن العنف المادي و المعنوي , بذات القدر تقترب هذا الجماعات من قيمة الوسطية . فلا وسطية مع تبني خيار العنف , ولا اعتدال لدى أي جماعة تمارس الإكراه و القهر و القسر لتبني مقولاتها أو خياراتها . .

فجماعات العنف مهما كانت أيدلوجيتها , هي جماعات غير وسطية . و من يتحدث عن الوسطية وهو يمارس القتل و التفجير أو يؤسس لثقافة ممارسة العنف , هي أيضا جماعات غير وسطية, حتى لو تحدثت في كل بياناتها عن فضائل الوسطية و الاعتدال . فالوسطية رؤية و موقف ولا تخالف بينهما .

3 ـ رفض إطلاق أحكام التكفير و الزندقة و التضليل و الانحراف العقدي على المختلف . لأن إطلاق أحكام التكفير على المختلفين , تقود إلى نبذ المختلف و طرده اجتماعيا و انتهاك حقوقه و التعدي على خصوصياته و قد تصل في بعض الأحيان إلى قتله .

فالاختلاف يكون بين متساويين , و ليس بين من هو قابض على الحق و الحقيقة , و بين الكافر بهما و المنشق عنهما . . و المجموعات البشرية التي تتساهل في إطلاق أحكام التكفير و الزندقة على الآخرين , هي جماعات مغالية و متطرفة .

لأنه لا يحق لأي إنسان أن يطلق أحكام التكفير على الآخرين لكونهم مختلفين معه في القناعات و الأفكار و التصورات .

و كلنا يعلم أنه على المستوى التاريخي و بالذات في زمن الفتن و الصراعات المذهبية , تم استخدام مقولة الكفر و التكفير كوسيلة من وسائل الصراع و رفع الغطاء الديني عن الآخر , و تحريض المختلفين معه إلى قتله و التعدي على حقوقه . و عليه فإن كل من يستخدم مقولات الدين و أحكامه الجزائية في صراعه الفكري أو السياسي مع الآخرين هو متطرف و بعيد عن خيار الاعتدال والوسطية .

و الجدير في اللحظة الراهنة على هذا الصعيد , هو شيوع الجماعات و الأفراد الذين يطلقون أحكام التكفير و التبديع و الزندقة على المختلفين معهم , مما أسس إلى مناخ سياسي و اجتماعي لممارسة العنف الديني بكل صوره و أشكاله . ولا ريب أن شيوع هذا التوجه الخطير على أمن و استقرار المجتمعات العربية و الإسلامية سيساهم في مضاعفة الخطر على جميع الأطراف و الأطياف الموجودة في الأمتين العربية و الإسلامية .

لأن هذه الجماعات التكفيرية تتوسل في حسم كل خلافاتها سواء كانت حقيرة أو عظيمة بالعنف و القتل و التفجير .لأنها تطلق أحكاما كاسحة على الآخرين ضمن رؤية نمطية ضيقة ، مما يسوغ لها استخدام المفخخات و قتل الأبرياء و ذبح الناس . و كأن هذه الجماعات هي وحدها العارفة بأحكام الدين و تشريعاته , و المخولة بتنفيذ أحكامه . و الذي يثير الاستهجان و الخوف في آن هو أن الذي يطلق فتاوى التكفير و الذبح و القتل أناس وفق المعايير الشرعية الإسلامية لاحظوظ علمية لهم , تؤهلهم ممارسة الإفتاء و إعطاء وبيان الأحكام الشرعية .

فتجد بعض المفتين قبل شهور قليلة كان يمارس الانحراف و الرذيلة بكل صوره , إلا إنه و في برهة زمنية وجيزة بفعل تدينه ينتقل إلى ممارسة الإفتاء و استباحه الدماء و الأعراض . لذلك آن الأوان للأمة الإسلامية جمعاء لرفع الصوت عاليا ضد كل عمليات القتل و التفجير و سفك الدماء التي تجري باسم الإسلام و الشريعة الإسلامية .

لأن استشراء جرثومة العنف و الإرهاب باسم الدين في مجتمعاتنا العربية و الإسلامية , سيدخل جميع هذه المجتمعات في أتون العنف الذي يقود مجتمعاتنا إلى الانهيار من الداخل , و يورطها في حروب عبثية لا تبقي ولا تذر .